مَثَلٌ جيد على ذلك. فالعصور الوسطى في الغرب هي عصور تقع بين العصور القديمة (اليونانية والرومانية) والعصور الحديثة، التي تبدأ بما يسمَّى «عصر النهضة» ـ أو هكذا يرى أهل الغرب، وهم أحرار تماماً فيما يظنون ويعتقدون. ولكن حين يُنقل هذا المصطلح من سياقه، ويُطبَّق على التاريخ الإسلامي، ليشمل نفس الفترة المتزامنة معه (عصر الرسالة والخلفاء الراشدين والأمويين والعباسيين وبدايات العصر العثماني) ـ يصبح لا معنى له. لأن عصور أوربا الوسطى (التي يسمونها مظلمة) هي عصر الازدهار والعلْم والحضارة في العالم العربي الإسلامي، وهذا العصر هو بداية التقدُّم، ولم يكَن مرحلة وسطى بين مرحلتين. ولنتخيل تطبيق هذا المصطلح على الصين مثلاً التي وصل تاريخها إحدى قممه الشاهقة إبَّان هذه الفترة!

ونفس الشيء يسري على مصطلح «عصر النهضة» فهو مصطلح يصف نقطة تحول شبه كاملة في التاريخ الغربي، من وجهة نظر الإنسان الغربي، كما أنه تحول إيجابي من منظوره أيضاً. ولكن أن يستورد هذا المصطلح بعض المؤرخين العرب ليصفوا التاريخ العربي بعد وصول الحملة الفرنسية، وتراجع الخطاب الحضاري المستقل، وبداية الهيمنة الإمبريالية والتبعية الاقتصادية والثقافية.. فهذا أمر ولاشك مضلل. وقد أثار المفكر العربي منير شفيق قضية مصطلح «عصر النهضة» حينما تساءل: «نهضة مَنْ، ولحساب مَنْ، وعلى حساب مَنْ؟!».

كما أنه شاع في آونة قريبة استخدام مصطلح «الاستنارة والتنوير» للإشارة إلى كتابات بعض الكُتَّاب العلمانيين مثل: سلامة موسى وشبلي شميِّل وأحمد لطفي السيد وغيرهم ممن حرصوا على نقل الفكر العقلاني الغربي دون إبداع كبير. ومصطلح الاستنارة في الغرب يشير إلى مجموعة من السمات والخصائص لا نعتقد أنها تتوافر في التفكير العربي الذي يقال له «تنويري». ولكن الأدهى من هذا أن ثمة أدبيات كثيرة غربية صدرت منذ آونة ليست بالبعيدة تبين تناقضات الفكر التنويري، بل يذهب بعضها إلى أن ظواهر مثل النازية والإبادة هي ظواهر كامنة في فكر حركة